



قبل بضعة سنين، نشرت صفحة "الحماية العسكرية للثورة السورية" مقالاً عن القائد الصيني والمفكر الاستراتيجي تسوتسو وكيف أنه أثناء عرض عسكري توقف ونزل عن جواده لأنه لاحظ أن أحد الجنود لم يعقد ربطه حذائه. متابعي الصفحة لم يفهموا لماذا ملك الصين يهتم لمسألة تبدو تافهة؟

أقول، إن لنا في السيرة النبوية لكتابه. قال ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام 2661): حدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صوفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدْحٌ (أي سهم مبrey) يَعْدِل به القوم، فمر بسوار بن غَزِيَّة - حليفبني عَدَى بن النجار- وهو مُسْتَنْتَلْ (أي خارج) من الصف، فطعن في بطنه بالقُدْحِ، وقال: "استوا يا سَوَادَ" ، فقال: يا رسول الله أوجعوني...

لماذا يهتم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأمور الصغيرة؟ رجل برب قليلاً من الصف، مع أنهم بعد قليل سيركضون للمعركة ويخالطون مع المشركين بالقتال. والجواب أن الذين يهتمون بالتفاصيل الدقيقة، هم الأقدر على التخطيط الجيد المتقن بحيث يستدركون كل دقائق المخطط فلا تجد فيه عيباً.

والبدوي بطبيعته فوضوي، نظراً لطبيعة الباية المتقلبة بعيدة عن الاستقرار والترتيب. ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام بذل جهداً في تعليم الصحابة الترتيب والنظام في حياتهم اليومية. وكانت العبادات اليومية أكبر معين لها على ذلك. يقول الشيخ علي الطنطاوي: "لماذا يبطل الصوم إن أفتر الصائم قبل المغرب بخمس دقائق؟ أليس - والله أعلم - لتعليمي الدقة والضبط والوفاء بالوعد؟ من مقاصد العبادات في دينه، تعليمه التنظيم والتصميم. لو لا ذلك ما جعل الله للصلوة "وقتاً" إذا تقدمت عنه دقة لم تصح الصلاة، ووقتاً للصوم وإن نقصت منه دقة فسد الصيام، وحدد للحج وقتاً أن لم يكن فيه بطل الحج".

الإسلام كله ترتيب وذوق ونظام، لأن هذا هو أساس الحضارة. إذ لا يمكن أن تقوم الحضارة على الفوضى والعشوائية. بل حتى الحرب، رغم أنها يمكن أن تحصل مع العشوائية، فإن المخططين للمعارك الفاصلة كلهم ممن يتقن الترتيب في الأمور الصغيرة.

و قبل أن يعرض القارئ على هذا، أدعوه للاطلاع لكتاب "رتب سريرك" لمؤلفه وليام مكرافن الضابط بالقوات الخاصة بالبحرية الأمريكية. والذي ذكر به أن الجيش الأميركي يركز بتدريبه الأساسي على أن يرتب الجنود سريرهم بطريقة معينة أول ما يستيقظوا. ورغم ما يبدو هذا أنه شيء بسيط، لكن له تأثير فائق على اضباط الجنود وعلى نفسيتهم لاحقا. ويمكنك مشاهدة ترجمة لخطابه الشهير الذي ابتدأ بقوله: "إذا أردت تغيير العالم إبدأ بترتيب سريرك" هنا:

<https://www.facebook.com/Plaizr/videos/1735924993377182>

وفي الثورة السورية، لا أعلم أحدا من كل قيادات الثورة كان مهتما فعلا بالترتيب. ربما الاستثناء الوحيد -في حد علمي- هو الشيخ زهران علوش الذي كان لا يخرج إلا وقلمه في جيده، وبكامل أناقته، في أرض المعارك. حتى أنه وضع بنداً في النظام الداخلي لجيش الإسلام بمنع تطويل الشعر! أما في الثورة السورية السابقة فهناك أيمان الشربجي، قائد الطليعة المقاتلة في دمشق، حيث كان لا يرضى أن يخرج من بيته وهو تحت الحصار إلا ببنطال مكوي. وأخيراً أختتم بمقولة الشهيد سيد قطب: الجاهلية المنظمة لا يهزمها إلا إسلام منظم.

المصادر: